مخطوطات هامة تكشف مدى سماحة العرب مع اليهود

بقلم: الدكتور رشاد الشامي

عرف المؤرخون وباحثو المخطوطات القديمة كنوزاً عظيمة من المخطوطات ظهرت فى الأماكن المقدسة والمقابر والحفريات. وأكبر هذه الكنوز على الاطلاق ظهر فى «الجنيزا» (خزانة القاهرة) المشهورة التى اكتشفها البحاثة الانجليزى الكبير ش. ز. شختر سنة ١٨٩٦. كانت هذه الخزانة فى الطابق العلوى من معبد عزرا فى حي الفسطاط بالقاهرة، وهو معبد قديم بنى فى القرن التاسع الميلادى، وقد كان هذا الطابق بدون نوافذ أو فتحات ولم تكن فيه سوى فتحة يمكن الولوج منها بالصعود فى سلم خاص. وقد اختزنت فى هذا الطابق مئات الآلاف من المخطوطات الأدبية والتاريخية التى أغنت التاريخ اليهودى والأدب العبرى عند ظهورها. ولازال مشروع فحص هذه الآثار ودرسها يشغل الكثيرين من البحاثة المتخصصين.

كان أول من تنبه الى وجود هذا الكنز من المخطوطات هو العالم جلدون فى عام ١٧٥٣، ثم العالم سبيير فى عام ١٨٦٤ م، ولكنهما لم يحصلا على شىء ولم يسمح لهما بالدخول، وذلك بسبب اعتقادات تافهة وخوف مبهم من مس هذه المواد.

ولكن برغم هذا هربت بعض الأوراق وبيعت للسائحين. ومن بين هذه الأوراق المهربة وصلت ليد البحاثة شختر فى جامعة كمبردج أوراق عرف أنها مخطوط لكتاب أمثال ابن سيرة باللغة العبرية، وكان هذا الكتاب معروفا فى ترجمته اليونانية فقط. فهرع شختر الى مصر وبعد مجهودات شتى سمح له بالدخول الى الخزانة فبقى ينقب لمدة سنة كاملة حتى استخلص مائة ألف ورقة مخطوطة وبعث بها الى جامعة كمبردج حيث خزنت بصناديق فى مخازن الجامعة وبقيت بانتظار اليد التى تبحثها وتكشف أسرارها. ولم يكن شختر وحيداً فى تنقيبه واقتنائه لهذه الكنوز الأدبية، فقد قصد القاهرة فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كثير من الباحثين وجامعى الآثار فحصلوا على ما استطاعوا الحصول عليه منها. ومن أكبر المخازن التى حوت هذه المخطوطات بعد مكتبة جامعة كمبردج المكتبة القومية فى لينينجراد فى روسيا.

وعند وصول هذه المادة الى الجامعات رقمت الأوراق والمجموعات وصنفت فى كتالوجات ليسهل بحثها بعدئذ. وقد فحصت الموضوعات التى تضم هذه الأوراق فاذا بها تضم مواضيع واسعة من الآثار الفكرية لم يحلم باحث بأن يصل اليها فى يوم من الأيام. ومن هذه المواضيع:

(١) أغلب كتاب أمثال ابن سيرة (ابن سيراخ).

(٢) قطع من ترجمة عقيلاس للكتاب المقدس الى اللغة اليونانية.

(٣) كتاب ميثاق دمشق.

(٤) أشعار قديمة كتبها شعراء عبريون فى الأندلس والعراق وفلسطين.

(٥) مواد تاريخية جمعت من يهود الأرض المقدسة ومصر.

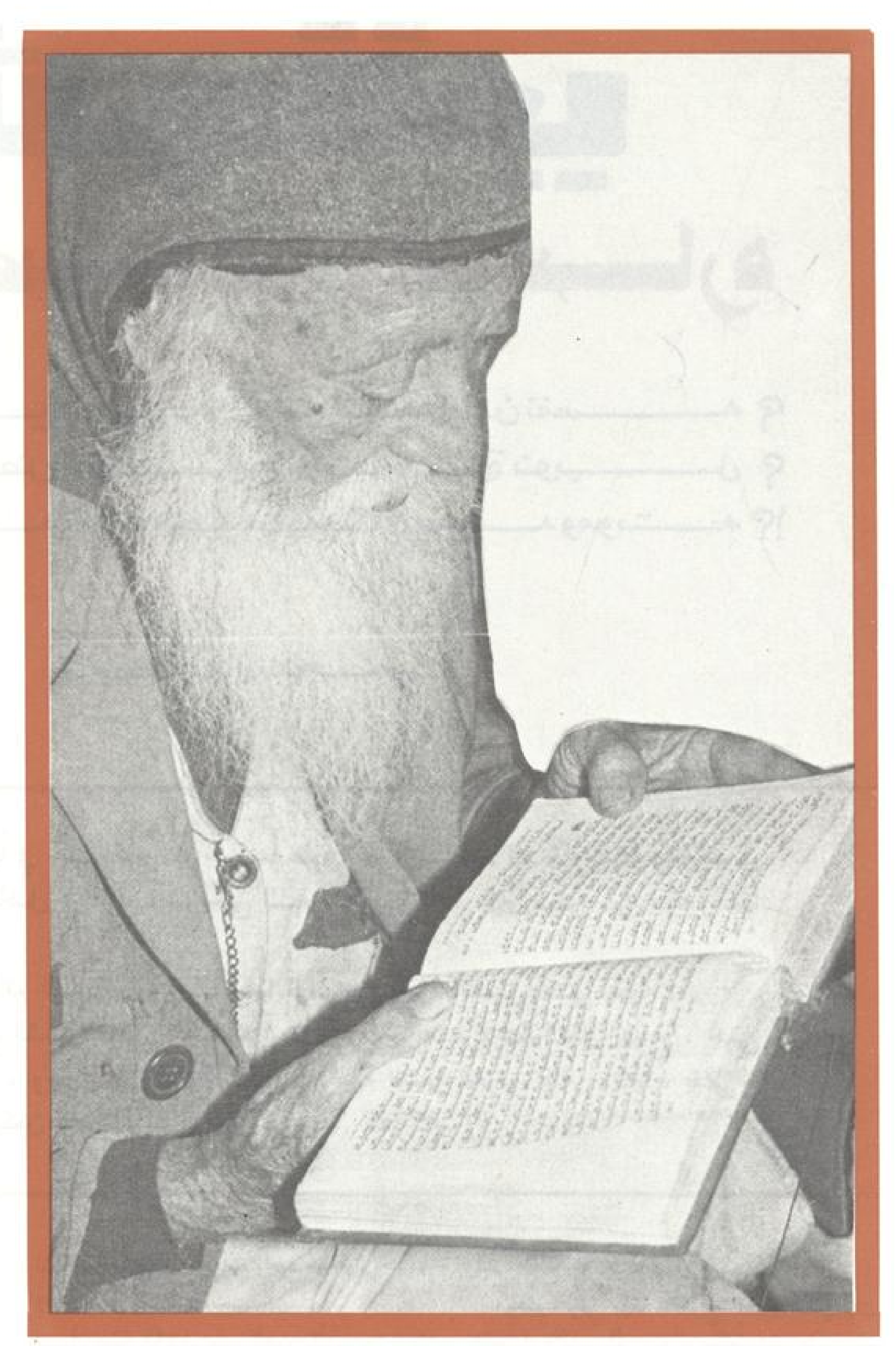
(٦) تاريخ جماعة القرائين.

(٧) وثائق لشخصيات مشهورة.

(٨) أشعار كتبها يهود من أوربا.

وبعد وصول هذه المخطوطات الى كمبردج وتصنيفها عرضت على طلاب العلم وبحاثه، فنظمت فى مجموعة تايلور ــ شختر التى عرفت باسم «المجموعة الجديدة» Newserles، ومنها استخلصت بعض الأشعار والقطع الأدبية فنشر أولها اسرائيل دافيدزون فى نيويورك عام ١٩٢٨، وثانيها ماركوس فى نيويورك أيضاً عام ١٩٣٠، أما مكتبة لينينجراد فلم تسمح ببحث مخزوناتها أو تصويرها. ولذلك لم يعرف العالم ما فيها حتى اليوم.

ومن أكبر بحاث هذه المخطوطات البروفيسور حاييم شيرمان المتخصص فى آداب القرون الوسطى فى الجامعة العبرية. فقد بدأ أول مابدأ فى استطلاعاته فى عام ١٩٣٠ فراعه مارآه من المواد التى تنتظر يد الباحثين. ولم يتح له عندئذ أن يعمل فى بحث هذه المخطوطات بسبب الظروف السياسية، فلم يبدأ فى أبحاثه بنطاق واسع الا فى عام ١٩٥٧ حيث قصد جامعة كمبردج ثلاث مرات فى خلال ثلاث سنوات، وفتح فى هذه الفترة ٢٦ صندوقاً وملأ من محتوياتها ١٣٣ علبة الحقت الى المجموعة الجديدة التى ذكرناها. وقد قصد كمبردج بعد ذاك علماء آخرون ولازال البحث مستمراً. وكان قصد البروفيسور حاييم شيرمان أن يكشف النقاب عن مؤلفات أدبية شتى لطبعها ونشرها بصورة واضحة ليستعين بها كل طالب علم فى هذا المجال، فاختار لهذه الغاية مجموعة كبيرة من الأشعار والمؤلفات التى لم ينشر منها الا القليل، فدرس هذه الآثار فى غضون خمس سنوات واستجلى معمياتها، فشكل هذه المؤلفات، وفسر مالم يكن مفهوماً من المعانى ومن الألفاظ. وكان ثمرة اجتهاده هذا كتاباً باسم «أشعار جديدة من الجنيزا»، وهو كتاب ضخم ضم طائفة كبيرة من الأشعار والمقامات والموشحات العبرية التى



كان العرب فى أيام إزدهار الحضارة الاسلامية يمثلون قمة التسامح مع كل أصحاب الأديان الأخرى ومن بينهم اليهود

كتبت ابتداء من الفترة البيزنطية فى فلسطين فى أوائل القرن السابع وضمت ماكتبه شعراء يهود العراق وفلسطين ومصر وشمال أفريقيا والأندلس. وقد كشف هذا النتاج الأدبى عن حقائق تاريخية قد يستفيد المؤرخ منها فى الاطلاع عما لم يعرف من قبل. وقد علمنا من هذه الحقائق أنه كانت فى شمال أفريقيا وشمالها الغربى طائفة يهودية فى القرون الوسطى فى الأندلس وحدها. وعلمنا بأن شعراء اليهود فى الأندلس كان لهم تأثير أدبى على مؤلفات سائر اليهود فى الشرق وذلك منذ القرن الثانى عشر. وعلمنا كذلك بأنه فى النصف الأول من القرن الرابع عشر كان يوجد شاعر عبرى فى بغداد يدعى «هارون حاخيمان». وكتاب حاييم شيرمان الذى ذكرناه .. وهو أهم كتاب من كتب خزانة القاهرة حتى الآن — ضم مؤلفات عبرية على النحو التالى :

(١) أشعار وموشحات لشعراء عبريين فى البلدان الشرقية وشمال أفريقيا، نذكر من هؤلاء الشعراء : حدوثا بار ابراهام، ونيس النهروانى وشلومو سليمان السنجارى وسهلان بن ابراهام، وشعراء من آل زبيدة، وراب سعديا جاؤون، وراب حاى جاؤون.

(٢) أشعار من المدرسة الأندلسية : شموئيل هناجيد، شلومو ابن جبيرول، يوسف ابن المهاجر، وموشى بن عزرا، ويهودا هليفى، ويهوذا الحريزى وغيرهم.

(٣) موشحات أندلسية فى موضوعات دنيوية لشعراء مجهولين.

(٤) مقامات للشعراء موسى ابن ليفى، واسحاق ابن سهولة وغيرهم.

(٥) مواضيع شتى لشعراء من ايطاليا ومن بيزنطة وأمثال مسجعة وأشعار لمواضيع تاريخية، ومدائح غزل وفخر، وجدل وهجاء.

إن هذه المجموعة الكبرى من الانتاج العبرى فى القرون الوسطى لم تكن متشابهة فى اتجاهاتها الأدبية لأنها ثمرة عصور شتى وبلدان مختلفة، الا أنها تتسم فى أغلبها بالأسلوب العبرى الغنى الذىاستقى من مناهل العهد القديم والتلمود وازدهى بأبهى المحسنات البلاغية العبرية وازدان كذلك بفنون البلاغة العربية — وعلى الأخص الأندلسية منها — فتفنن هؤلاء الشعراء بالقوافى وزينوا قصائدهم بما يسمى «الاكروستيخون»، وهى القوافى التى تبدأ بها الأبيات على نمط بعض أشعار العهد القديم (أمثال ٣٠، ١٠، مزامير ١١٩، مراثى أو غيرها).

وكانت الأشعار الأولى مكتوبة بأوزان أشعار الكتاب المقدس، والمتأخرة منها تأثرت بالبحور العربية المألوفة. وهنالك الأعمال النثرية من المقامات التى ضمت موضوعات دينية ودنيوية فى لباس عربى وعبرى مشترك. والموشحات الأندلسية التى كتبت بروح نشيد الانشاد. وقد ضمت هذه المؤلفات أكثر ماضمت تسابيح بهدف القراءة والانشاد فى الطقوس الدينية كما ضمت موضوعات مماثلة لماضى الأشعار العربية كالمديح والهجاء والعتاب والجدل والشكوى والغزل.

وأخيراً فان اكتشاف كنوز خزانة القاهرة ونشرها هو حدث علمى كبير، وذلك لأن هذه الانتاجات تكشف بجلاء ووضوح عن مدى السماحة التى عامل بها المسلمون اليهود خلال هذه العصور مما جعلهم يبدعون ويؤلفون، كما يكشف عن مدى تأثر التراث العبرى خلال هذه المرحلة بالتراث العربى الاسلامى فى شتى فنون الأدب والعلم والمعرفة سواء فى الشعر أو الفلسفة أو النحو أو غيرها من العلوم.